القيمة والمعيار الجمالي

الدكتور معن جاسم الأمين

يرتبط مفهوماً القيمة (Value) والمعيار (Norm)بالأحكام التفضيلية التي تعد الاطار المرجعي الذي يحكم تصرفات الانسان في حياته الخاصة ، والقيم عبارة عن "تنظيمات معقدة لأحكام عقلية انفعالية معممة نحو الاشخاص او الاشياء او المعاني سواء أكان التفضيل الناشئ عن هذه التقديرات المتفاوتة صريحاً او ضمنياً، وان من الممكن التصور ان هذه التقديرات على اساس انها امتداد يبدأ بالتقبل ويمر بالتوقف وينتهي بالرفض". (هناء، ١٩٥٩- ص٦٠٢) فهي معايير او احكام لما يمكن ان يكون عليه الشيء مرغوباً او غير مرغوب فيه.وتتعدد القيم وتتناقض مع بعضها نتيجة لاختلاف الافراد والجماعات ولصراع المنافع والمصالح ولصراع العواطف والانفعالات.

والقيمة حكم انساني بضيفه الانسان الى الاشياء في سعيه لبلوغ الكمال. (خرطبيل، ١٩٨٠- ص١٠٠) وهي ليست قوانين او قواعد محددة يتوجب حضورها في الشيء انما هي شيء ينقصنا ونحاول الوصول اليه وبلوغه وتحقيقه.

"فالقيم ليست اجزاء من معلومات معروفة وواضحة، انها تتضمن افكاراً عميقة ومشاعر ترتبط بحياة الناس، بمعنى ادق انها المثل التي يقبلها اعضاء المجموعات الاجتماعية بشكل ظاهر او ضمني والتي تؤثر في سلوك الجماعة". (علوان، ١٩٨٧- ص٥٨).

اما المعيار فهو قيمة ممثلة لجماعة معينة، وقد يكون المعيار قيمة وحيدة او عدة قيم.

ويرتبط المعيار الجمالي ارتباطاً وثيقاً بالقيمة الجمالية في الاعمال الفنية، اذ يتطلب التعبير عن احدهما ضرورة توفر الاخر للدلالة عليه، فبدون القيمة الجمالية لا يكون هناك معياراً جمالياً. كذلك فأن من المتعذر علينا معرفة القيمة الجمالية وطبيعتها ومستواها دون وجود معايير. (العبيدي، ١٩٩٩- ص٢٠٠).

ويتطلب الحكم على الاعمال الفنية وتحليلها معرفة وتقدير ما تحمله من قيم باعتبار ان "العمل الفني بناءً من القيم". (ويليك، ١٩٧٥- ص٥٤-٥٧).

وقد تناول الفلاسفة والمفكرون مفهوم القيمة من عدة جوانب، وسنحاول التعرض بإيجاز لمفهوم القيمة والمعيار الجمالي في الفكر الفلسفي وعلم النفس.

القيمة والمعيار في المنظور الفلسفي.

ادى اختلاف المذاهب الفلسفية الى تفاوت الآراء وتضاربها بشأن مفهوم القيمة.وقد حاول المفكرون الاجابة عن العديد من الاسئلة عن طبيعة القيم، وهل هي وسيلة تؤدي الى

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.

غاية ام هي غاية تنشد بذاتها، وهل هي ذاتية ام موضوعية، أي هل هي صفات عينية للأشياء لها وجودها المستقل عن العقل الذي يدركها؟ ام هي من وضع العقل واختراعه؟ ويتفرع عن ذلك القول بنسبية القيم او اطلاقها.

فهناك من يرى ان قيمة الشيء موضوعية ومستقلة عن ذات الانسان ومشاعره وتحدد بمعزل عن خبرته في الحياة، وان هذه القيم ثابتة لا تتغير، بينما يرى آخرون ان قيم الاشياء ليست بكائن ثابت لا يتغير، بل مجرد شعور ذاتي او تقدير يشتق من ذات الشخص المتفاعلة مع خبرته.

وقد انقسم الفلاسفة بشكل عام الى قسمين، القسم الاول والذي يمثل الفلسفات المثالية والعقلية، يرى القيمة من حق وخير وجمال صفة عينية كامنة في طبيعة الأقوال (في المعرفة)، والافعال (في الاخلاق)، والاشياء (في الفنون). ومادامت كامنة في طبيعتها فهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات، وبهذا المعنى فهي تطلب لذاتها. والقسم الآخر والذي يمثله الطبيعيون من الحسيين والوضعيين والبراجماتيين والوضعيين المنطقيين ومن اليهم، وهم يرون ان القيمة صفة يخلعها العقل على الأقوال والافعال والاشياء طبقاً للظروف والملابسات وبالتالي تختلف باختلاف من يصدر الحكم. والقيمة بهذا المعنى تعني الاهتمام بشيء او استحسانه او الميل اليه او الرغبة فيه مما يوحي بأن القيمة ذات طابع شخصي، وهي على وفق هذا المنظور بنية متغيرة بحسب الظروف والأقوال واساسها العادات والخبرة السابقة. (مجمع اللغة العربية، ١٩٧٩- ص١٥١).

وقد ربط فلاسفة الاغريق معيار الجمال بقيم الحق والخير والجمال، فأكد السفسطائيون نسبية القيم ، على الضد من (افلاطون) الذي عد القيم موضوعية ويكون مصدرها عالم المثل. كما ربط فلاسفة الاغريق قيمة الجمال بكل من قيم الحق والخير. فالجمال عند (سقراط، ٤٧٠-٣٩٩ق.م)، يهدف الى غاية او منفعة. والشيء الجميل في نظرة هو ما يحقق الخير والمنفعة، فلا خير في جمال لا يقود الى الخير والفضيلة. (مطر، د.ت- ص١٩). وعلى العموم فأن فلاسفة الاغريق ربطوا بين الجمال والاخلاق، ومهما تكن قيمة هذا الربط فأن الفلاسفة الالمان المحدثين – بفهمهم للاستطيقا وتحديدهم ميدانها – حاولوا استبعاد كل الاعتبارات الاخلاقية في نظرتهم الى الجمال. فيرى (كانت Kant) ان الإدراكات التي يصحبها في العقل احساس باللذة، دون أي شعور بعلاقة او اتصال، هي وحدها مشاعر الجمال الحرة الكاملة، وان هذه المشاعر لا يمكن ان تخضع لأي إدراك عقلي، او ان ترتبط بالمناظر والأصوات الجميلة، وقد اعطانا كمثال لذلك استمتاعنا بجمال زهرة.

اما في القرن العشرين فقد عدت القيم جزء لا يتجزأ من الواقع الموضوعي للحياة والخبرة الانسانية، فهي جزء لا يتجزأ من بناء كيانها، وهي عبارة عن احكام يصدرها الانسان على الاشياء، وهي منبثقة من واقع تفاعل الناس مع الاشياء ضمن واقع حياتهم في

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.

مواقف معينة. والقيم على وفق هذا المنظور، بنية متغيرة بحسب الظروف والأحوال واساسها العادات والخبرة الهادفة، وقد مثل هذا الاتجاه كل من (بيرس Pierce) و (وليم جميس William James) و (جون ديوي John Dewey). (العاني، ١٩٩٩- ص١٠١).

لذا نلاحظ اختلاف المعايير الجمالية نتيجة اختلاف الحضارات والمنطلقات الفكرية لكل منها، فقد عد الاغريق الفضيلة والاخلاق معياراً للحكم الجمالي. اما (كانت) فهو يرى: "ان الشيء الجميل يرتبط ارتباطاً ضرورياً بشعور باعث على اللذة وانه بوصفه شيئاً جميلاً ليس موضوعاً للمنفعة، وانه يثير اللذة في نفوس الناس جميعاً"، (الموسوعة الفلسفية المختصرة، ١٩٨٣- ص٣٣٩)، أي ان كانت يربط الجمال بالشعور باللذة من دون غاية.

وفي الفكر المعاصر فأن المفكرين ميزوا بين القيم الجمالية والقيم الاخلاقية. فقد عد (جورج سانتياناGeorge Santayana ، ١٨٦٣-١٩٥٣) القيم نوعين: جمالية واساسها النشوة، واخلاقية واساسها التفضيل، وكلا النوعين لا يستندان الى العقل. (سانتيانا، د.ت- ص٤٩-٥١).

ومن جانب آخر، فقد كان للفلسفة الماركسية دوراً مهماً في تأكيد الوظيفة الاجتماعية للفن، وارتباطه بنضال الشعب ومصلحته، فليس الفن مقتصراً على التعبير عن مشاعر الناس وعواطفهم وحدها بل هو يعبر عن عواطفهم وافكارهم معاً. (بليخانوف، ١٩٧٧- ص١٣) واصبح معيار القيمة في العمل الفني هو خدمة المجتمع والتعبير عن قيمة وتطلعاته.

اما الفلسفة الوجودية فترى "ان الحرية هي مصدر القيمة التي لا تنبثق من معطيات سابقة، ولا تتجه نحو معيار، بل هي التي تصنع المعيار وليس المعيار هو الذي يجب عليها ان تطابقه" (قنصوة، ١٩٨١- ص١٦٤).

وبخلاف النظرية الماركسية يرى (هربرتماركوزHerbert Marcuse):

"ان الفن يتمتع بمقتضى شكله الجمالي بقدر وسيع من الاستقلال الذاتي عن العلاقات الاجتماعية القائمة" (ماركوز، ١٩٧٩- ص٧-٨). والفن يبشر بتغيرات جوهرية في المجتمع بصفة عامة ويكشف زيف الواقع الاجتماعي وتحجره فاتحاً افق التغيير والتحرر، فتكون الثورية هي المعيار الحقيقي للفن. والعمل الفني الثوري هو الذي يهدم تصور العالم وفهمه، ويشهد ضد الواقع القائم ويرسم صور التحرر الخارجية. (ماركوز، ١٩٧٩- ص٩-١٠).

ويتضح مما سبق، وجود اختلافات في النظر الى مفهوم القيمة من المنظور الفلسفي ادى بدوره الى اختلاف في تحديد المعايير الجمالية للعمل الفني.

القيمة والمعيار في المنظور الاجتماعي.

يذهب الاجتماعيون الى ان القيم لا تنبع تلقائياً، ولا تصدر عن الغرائز بل تنبع من عالم راق من الفكر والوجدان. (فرح، ١٩٨٩- ص٣٩٢).

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.

ويرى البعض ان "قيمة شيء من الاشياء هي امكان الرغبة فيه، وهذه العلاقة الماثلة بين الشيء والشخص تجعلنا نفهم ان الشخص يرغب بالشيء حقاً" (سيزاري، ١٩٨٣- ص٦).

والقيم في المنظور الاجتماعي هي :" مجموعة من المعايير التي تنبثق عن جماعة.. ويكون لها من القوة والتأثير ما يتناسب مع صفات الضرورة والالتزام والعمومية والخروج عنها هو خروج عن اهداف الجماعة ومثلها العليا ". (احمد، ١٩٨٣- ص٤).

ونظر (اميل دوركايمEmile Durkheim) الى القيم نظرة ذاتية فرفض الرأي الذي يشير الى ان للقيم حكم منفصل عن الشخص ومرتبط بالموضوع (أي موضوعية القيم) لاعتقاده بعدم وجود علاقة بين الخصائص الموضوعية للأشياء، وبين قيمتها، فقيمة الشيء لا يمكن ان تقدر إلا عن طريق بعض الافكار المثالية، فالمثل العليا وان كانت تصورات جمعية حقيقية ومرغوب فيها، فهي ترتبط بأشياء يستطيع الناس ادراكها، وترتبط بحياة الناس العملية ارتباطاً شديداً، والقيم تصورات تتميز بالعمومية والالزام وهي لا تفرض من الخارج على الجماعة بل تتولد من الظروف التي تحياها الجماعة. ويمثل المعيار الجمالي لمجتمع ما اتفاق الاحكام لذلك المجتمع للقيمة الجمالية.

القيمة والمعيار في المنظور النفسي

بينما يركز الفلاسفة على معنى القيمة ويهتم علماء الاجتماع بالجماعة والسلوك الجمعي يركز علماء النفس على الفرد وسلوكه وما اذا كانت القيم حاجة ام سمة ام اهتمام او غير ذلك.

ويرجع الفضل كما يقول (بوكس Pukes) في نقل موضوع القيم من الفلسفة الى علم النفس الى العالم الالماني (سبرانجرSpranger)، اذ ذكر في كتابه (انماط الرجال) ان الناس يتوزعون في ستة انماط هي: النمط الديني، والاجتماعي، والسياسي، والجمالي، والاقتصادي، والعلمي، بناء على القيم التي تسيطر على عقولهم (Pukes, 1955 P.24-50) وقد صنف (سبرانجر) هذه الانماط بحسب تغلب قيمة من القيم الست وهي القيم الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والجمالية، والاقتصادية، والنظرية، وتكون هذه القيم موجودة لدى الافراد والفروق بينهم تكون بحسب القيمة التي تحتل المرتبة الأولى في سلمهم القيمي، وهذا لا يعني ان الناس يتوزعون على هذه القيم، وانما هي موجودة جميعها في كل فرد، بيد انها تختلف في ترتيبها من فرد لآخر قوة وضعفاً وبحسب اولويتها في السلم القيمي. (Hgell& Ziegler, 1988, P.311).

وقد حاول عدد من الباحثين تصنيف القيم وحصرها، فقد صنفت على اساس المقصد الى قيم وسيلية وقيم غائية، وعلى اساس الشدة الى قيم ملزمة وقيم تفضيلية، وعلى اساس العمومية الى قيم عامة وقيم خاصة، وعلى اساس الوضوح الى قيم ظاهرة وقيم ضمنية، وعلى اساس الدوام الى قيم دائمة وقيم عابرة وعلى اساس المحتوى او ابعاد

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.

الشخصية الى قيم نظرية واقتصادية وجمالية واجتماعية وسياسية ودينية. (زهران، ١٩٨٤- ص١٣٦).

اما المعيار الجمالي فهو يرتبط بالرغبة وميول واتجاهات الافراد او قيم وعادات الجماعة، ويتأثر بالثقافة والمستوى الاقتصادي والاجتماعي ومستوى التعليم. فالمعيار الجمالي يمثل القيم الجمالية التي تمثل ميل الفرد واهتمامه بما هو جميل من حيث التناسق او التوافق في الشكل.

وقد اهتم علماء النفس بطبيعة المعايير الجمالية ودوافع اعتمادها من قبل الافراد والجماعات وعلاقتها بميولهم واتجاهاتهم وطبيعة الاستجابة لهذه المعايير والقيم.

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.